رئيس ... !

عدت إلى منظاري فوضعته على أني وقد أزلت عنه ما علق به من الغبار والعدأ ؛ وما زال لهذا المنظار سحره العجيب . فهو يريني من دنيا الناس ما لا تريني العين المجردة ؛ فلولاه مثلا ما استوقف بصري هذا الذي أحدثك عنه ، والذي أضيف إليه لقب الرياسة العظيم ، وما هو من ذوي الجاه ولا العظمة ، إذ ما زاد على أنه كبير الخدم بالمدرسة التوفيقية الثانوية.

وأنا يا قارئي العزيز رجل بسيط ، فقد لا أرى شيئاً من العظمة ولا من الرياسة في بعض من تواضع الناس على أنهم عظماء ورؤساء ، وقد أرى العظمة كل العظمة والرياسة كأحسن ما تكون الرياسة في رجل كالذي أحدثك عنه . ولست بالضرورة أدعوك إلى أن ترى ما أرى ، فأنت وشأنك ، وإنما أدعوك لأن تقرأ هذا في غير سخرية مني ...

إن « عم أحمد حسين » كما يسميه الطلاب « والريس أحمد المهدة » كما يدعوه زملاؤه ، أو على الأصح مرؤوسوه ، هو رجل يريني منظاري من خلقه وسمته ما يحملني على أن أرى فيه رئيساً بل ورئيسا محبوبا ان أردت الحق .

أول ما حببه الى وقاره اذا تكلم أو مشى ؛ ووفرة شعوره بشخصيته . والأنفة ممن كان في مثل موضعه تحمل على الإعجاب والمحبة ؛ فكم نسي الأنفة كثيرون هم أرفع درجات منه بحكم العمل . وليس في أنفته شيء مما يرى في غيره من ذوي الرياسات من صلف أو غرور ، وانما هي الكرامة تلمحها في وجه « عم أحمد حسين » حين يأمر في صلف أو ينهر في غير موجب ؛ فتراه عندئذ يرشق آمره أو ناهره بنظرة ثائرة فيها التمرد الصامت ، والعتاب الذي يشبه الازدراء ، وبين يديه ثمانية وثلاثون عاما قضاها بين جدران ذلك المعهد العتيق . فمثله ليس بالشخص الذي يرهب سلطان متسلط وقد درج تحت بصره في هذا المعهد مئات من رجالات هذا البلد فما أساء اليه أحد بكلمة .

وحببه الى كذلك حيويته ودأبه واخلاصه في عمله وعظيم تأثيره في مرؤوسيه وقد علت به السن ؛ فما تدور بعينيك في ركن من أركان الدار الا طالعك منه « عم أحمد » في جلبابه الجيد النظيف وقد تجمد شعر فوديه الأبيض تحت طربوشه القاتم الطويل يدفعه دأما الى الخلف قليلا بحيث تتدلى ضبوطه فوق أذنه اليمنى ، وكأنما يكسبه هذا الوضع مهابة الى جانب ما يكسبه منها شعره الأبيض وطول أعوام خدمته ، أو هكذا أخيل الى منظاري ...

ويعجبني منه ذكاؤه وسرعة خاطره وخفة روحه ؛ فهو سريع الفطنة الى ما يسرك من ألوان الحديث وكيفيه الخطاب ، فيحدثك وهو ينظر بعينيه اللامعتين اذا تسمع ، فإن لمح أثر ارتياحك على محياك استرسل ، وان آنس فيه كدرة أدار الحديث في لباقة وسرعة حتى يقع على ما تحب .

وأجل حديثه ما كان عن تاريخ المدرسة وتلاميذها القدماء . فيسمعك أسماءهم كما كانت تسمع في فناء الدار ، خالية من ألقاب العزة والسعادة والمعالي وما اليها ، وكأنه يريد أن يلقي في روع طلاب اليوم أن هؤلاء كانوا بالأمس مثل ما هم عليه الآن ، وهو ايحاء يحبه الطلاب . ومن يدري فلعل فيهم من يحمل في غد أكبر الألقاب ، أو من يستغني بنباهة اسمه عن جميع الألقاب .

على أن أكرم خلال ذلك الرئيس هي وفاؤه لكل من يعمل معهم ، وغيرته على سمعة ذلك المعهد الذي يعمل فيه ، وأن جميع من عرفوه ليلمسون فيه هذا الوفاء .

واذا شئت دليلا على وفاء هذا الرجل ، فاعلم أنه يرسل كل عام في عيد الميلاد خطابا الى مستر اليوت[1] بانجلتره ؛ ومستر اليوت هذا كان ناظراً للمدرسة التوفيقية منذ ربع قرن ، وهو لا يملك له اليوم ضراً ولا نفعا ، ولذلك فوفاؤه لا تعلق به شائبة من تلك الشوائب التي قلما خلا منها « وفاء » في هذه الأيام ، وقل في الناس من يوادك الا لعلة .

أرأيت معي أن « عم حسين » خليق بأن يدعى الرئيس . وبأن رياسته خليقة بأن تحب ؟ ان كنت في ريب من هذا فأخطر ببالك من تطمئن الى الاعتراف لهم بالرياسة ، وانظر ان كنت تجد فرقا بينه وبينهم ، ومرد الأمر فيما تحكم الى ذمتك ، أما أنا فلست أشك في أنه أكرم عندي من كثيرين ، واذا كان هذا الخطاب الذي أشير اليه دليلا على ديمقراطية الناظر القديم . فان فيه لك شهادة على أن كبير الخدم أحمد حسين جدير بأن يذكر وبأن يحب .

الخفيف

(١) تجد زد مستر إليوت عليه هذا العام عزباً في البريد الأدبي